النثر في العصر الاموي

عوامل تطوره وازدهاره :

لاشك في ان النثر قد تطور كثيراً في هذا العصر فقد تعددت فنونه ولكن هذه الفنون بدرجة تجعل الباحث يقرر منذ البداية ان النثر القولي في واحة الخطب والرسائل والوصايا والمحاورات لم يشهد ازدهاراً ورقياً مثل الذي شهده في هذا العصر.

عوامل تطوره هي :

١. **غزارة التراث الادبي** : الذي ورثه الامويين عن سابقيهم ،وانصرافهم الى الاهتمام به واحيائه،وتشجيع الرواة والادباء على روايته والتأليف منه .

٢. **القرآن الكريم** : لقد اقبل الادباء والكتاب المسلمون على القرآن الكريم يكثرون القرءة فيه ويتأدبون بعباراته،ويقتدون باساليبه،ويجنحون الى محاكاته وايثار الفاظه بالاستعمال في التحدث والخطابة والكتابة والشعر .

٣. **الحديث النبوي الشريف** : كانت هي الاخرى رافداً ثالثاً في هذا التراث الادبي،وكانت مجال دراسة الرواية في هذا الطور،وقد اسهمت احاديث الرسول (ص) في اثراء النثر بالفاظ ومعان اسلامية جديدة ، وبذا تحررت فنون النثر من التعقيد والخشونة والصعوبة ، وصارت تتميز بالرقة والسهولة والوضوح مع الفصاحة والبلاغة . وتقترن بهذه الاحاديث خطب الرسول (ص) والصحابة الاوائل والخلفاء الراشدين ، فقد اسهمت ايضاً في تطور نشر هذا العصر ايضاً

٤. **القصص** : التي كانت تعقد لها المجالس في مساجد الامصار ومعظمها تدور حول اخبار العرب في الجاهلية وغزوات الرسول (ص) وفتوحات المسلمين . وهذه القصص في حقيقة امرها تعد فناً نثرياً نشأ في هذا الطور،وحظي باهتمام الخلفاء الامويين وكانت من نتيجة هذه المجالس ظهور مؤلفات تتحدث عن اخبار ملوك العرب الماضين مثل كتاب (اخبار الامم الماضية) وكتاب (اخبار عبيد بن شريه الجرهمي في اخبار اليمن واشعارها وانسابها) .

٥. **الاختلاط بالموالي والعناصر الاجنبية** : وكان من نتاج هذا الاختلاط وقوف اهل الادب على ثقافات الامم القديمة التي اسهمت في اثراء ثقافتهم العربية الاسلامية ،فضلاً عن ترجمة الكثير من هذه الثقافات الى العربية ، من بين ما ترجم الى العربية كتب في النجوم والطب والكيمياء وغيرها .

٦. **الحياة السياسية** : شهد العصر الاموي صراعاً سياسياً بين احزاب أربعة هي: الحزب الاموي الحاكم،والحزب العلوي،والحزب الزبيري،وحزب الخوارج . وكان لكل حزب من هذه الاحزاب شعراء وخطباء كان لهم اثر كبير في ازدهار الشعر والنثر الخطابي والكتابي .

٧. **الحياة العقلية** : التي نتجت عن فرق المتكلمين من مرجئة وقدرة ومعتزلة ، فكان ذلك عاملاً مهماً في اثراء الفكر ونموه بصورة تبدو اكثر وضوحاً في نثر هذا الطور وبخاصة في خطب الوعاظ المتكلمين .

****

فنون النثر في العصر الاموي :

أولاً: ١.الخطب ---- ٢. الوعظ ---- ٣. الرسائل الفنية

شهدت الخطابة تطوراً كبيراً وقد اسهم في تطورها عوامل عدة منها اتساع رقعة الدولة الاموية ، وظهور الاحزاب السياسية والفرق الاسلامية ، وحركة الوفود الى حاضرة الخلافة الاموية ، وحاجة الامة الى الوعظ الديني الذي يقوم على القصص وعناية الخاصة بالخطابة والحرص على تعلمها واهتمام الخطباء بتجويد خطبهم وصقلها . فضلاً عما كان عليه العرب من بلاغة المنطق ، وحسن البيان . وجاءت الخطب في هذا العصر على انواع متعددة :

أ.خطب المواعظ الدينية .

ب. خطب السياسة والحكم .

ج. خطب الحث على الجهاد.

د. خطب الوفود .

****

أ. **خطب المواعظ الدينية** : كثر في هذا العصر رجال الوعظ والقصص الديني ، والذي يقرأ كتاب البيان والتبيين للجاحظ يجد الكثير من الوعاظ ، كما يجد جمل غير قليلة من مواعظهم الطويلة والقصيرة التي خلفوها لنا ومن اشهر الوعاظ

الذين برزوا في هذا العصر (الحسن البصري) المولود في مدينة الرسول(ص) والمشهور بالتقدم في الخطابة والفصاحة في القول .

ولقد اورد ابو عثمان الجاحظ قطعاً غير قليلة من مواعظه واقواله التي تدل على زهده في الدنيا وانصرافه الى دعوة الناس الى الخير والاصلاح في دنياهم واخرتهم ولقد اخترنا من هذه القطع القطعة الآتية :

يقول الحسن البصري :

((رحم الله رجلا خلا بكتاب الله فعرض عليه نفسه فان وافقه حمد ربه وسأله الزيادة من فضله وان خالفه أعتب وناب)) وراجع من قريب رحم الله رجلا واعظ أخاه وأهله فقال **:((يا أهلي صلاتكم صلاتكم زكاتكم زكاتكم جيرانكم جيرانكم إخوانكم إخوانكم مساكينكم مساكينكم لعل الله يرحمكم فان تبارك وتعالى أثنى على عبد من عباده))** فقال **: ((وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا))** يا ابن ادم كيف تكون مسلما ولم يسلم منك جارك ؟ وكيف تكون مؤمنا ولم يأمنك الناس ؟ .

والذي نلاحظه في هذه القطعة :

١. إن الحسن البصري يتبع طريقة عالية في ربط مستمعه بكتاب الله وهو يطالبه بأن يرجع بنفسه الى كتاب الله ويعرض عمله عليه .

٢. يحاول أن يجعل من مستمعه واعظاً لا موعظاً .

٣. يدعم الحسن البصري فكرته هذه بآية من القرآن الكريم ، ونراه يفيد من الحديث النبوي الشريف .

٤. ونلاحظ في هذه الخطبة إن الحسن لم يعمد الى السجع بل عمد الى الترسل .

٥. يحاول البصري ان يستفيد من تنوع الاسلوب حيث ينتقل بين الاساليب الخبرية والانشائية .

٦. زين البصري خطبته ببعض المقابلات البديعية كقوله : (فأن وافق حمد ربه ، وإن خالفه اعتب وناب) .

٧. إن الحسن يميل الى الاسلوب الذي يتسم بالسهولة واليسر .

٨. وفي موعظته يسلك سبيل التصوير المباشر للمعاني،وقد يلجأ الى التصوير غير المباشر مثل قوله في موعظة له: (فراش نار وذبان طمع) وهذا تصوير

تشبيهي جيد يرسم لنا صورة هذه النماذج من البشر التي تعيش بين المجتمع وتستجيب لكل ناعق يريد ان يثير فتنة بين الناس او يدعو الى ضلالهم .

٩. جلالة الافكار ونفاسة المعاني التي تضمنها مواعظه وهي افكار ومعاني يستمدها من مصادر ثقافته الدينية والادبية .

.....

ب. **خطب السياسة والحكم** :

ازدهر هذا النوع من الخطب ازدهاراً واضحاً في العصر الاموي وعلة ذلك ترجع الى ان الخلفاء الامويين وولاتهم اتخذوها اداة لتثبيت دعائم خلافتهم وتبيان منهجهم في الحكم وادارة الدولة وشؤون الرعية . وقد استطاعوا في اغلب الاحيان ان يحققوا غايتهم من ذلك لما كان لهم من قوة في الفصاحة والبيان مثل معاوية وابنه يزيد وعبد الملك ابن مروان والوليد بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز وزياد ابن ابيه والحجاج بن يوسف الثقفي وغيرهم . وبرز في هذه الاحزاب السياسية المناوئة للحكم الاموي خطباء اجادوا القول الخطابي وابدعوا فيه لقد صورت خطبهم الحياة السياسية في هذا العصر اروع تصوير كما جسدت بوضوح الافكار التي امنوا بها والاحداث التي خاضوها في نضالهم السياسي فكان في العلويين خطباء على رأسهم الحسن ابن علي واخوه الحسين وسليمان بن صيرو والكميت بن زيد الاسدي وكذلك الخوارج كان فيهم خطباء مصاقع مثل قطري بن الفجاءة والطرماح ابن حكيم وعمران بن حطان وابي حمزة الشاري . اما الحزب الزبيري فقد كان فيه عبد الله بن الزبير،واخوه مصعب وبصورة عامة ان خطب هؤلاء جميعاً لن تخلوا من نصح وارشاد ووعيد وتهديد وترغيب وتحبيب وكانت الصراحة من سماتها البارزة ايضاً وجل خطبهم تعد معلما من معالم الجودة وغاية من غايات البلاغة . ومن امثلة هذا النوع من الخطب خطبة الخليفة عمر بن عبد العزيز التي قالها بعد توليه الخلافة وهي خطبة نابغة عن شخصية عمر نفسها وماعرف به من التقوى والورق وخشية الله وذلك انه لما دفن سليمان بن عبد الملك سار الى المسجد واجتمع اليه الناس فقال :

((أيها الناس إني قد ابتليت بهذا الامر على غير رأي كان مني ولا طلبة له ، ولا مشورة من المسلمين،واني قد خلعت مافي اعناقكم من بيعتي فأختاروا لانفسكم)). فصاح الناس صيحة واحدة قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضينا بك فلما رأى الاصوات قد هدأت ورضي به الناس جميعا حمد الله واثنى عليه وصلى على النبي (ص) ثم خطب فيهم واوصاهم بتقوى الله وطاعته والعمل لاجل رضاه وختم خطبته بقوله : ((ايها الناس من اطاع الله وجبت طاعته ، ومن عصا الله فلا

طاعة له ، اطيعوني ما اطعت الله فيكم فاذا عصيت فلا طاعة لي عليكم)) .
ومن امثلة خطب السياسة والحكم خطبة زياد بن ابيه في ولايته البصرة حيث قال:
((ايها الناس انا اصبحنا ساسة وعنكم ذادة نفوسكم بسلطان الله الذي اعطانا نذرء عنكم بفيء الله الذي حولنا فلنا عليكم السمع والطاعة في ما احببنا ولكم علينا العدل فيما ولينا فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا)) . لقد اتسمت خطبة زياد المعروفة بالبتراء باكثر من طابع خطابي إذ بدأ خطبته باسلوب مفزع ثم خفت لهجته حين انتقل الى بيان فكرة الوالي الذي وكلت اليه امور الناس ليرعى مصالحهم ويشيع العدل فيهم ويطلب منهم اسداء النصح له قدر اشاعته العدل بينهم

.

****

جـ . **خطب الحث على الجهاد** :

بدأ هذا النوع من الخطب في عصر صدر الاسلام ، حين بدأت الفتوحات الاسلامية في ايام الخليفة الراشد ابي بكر(رض) ولقد رأينا نماذج منها في ذلك العصر ، اما في هذا العصر الاموي فبالرغم من ان الامويين قد شغلوا كثيراً بالفتن الداخلية وحروبات معارضيهم فقد استطاعوا ان يوسعوا الفتوحات الاسلامية في المشرف في خراسان وبلاد الترك والسند ، وفي المغرب حيث اتموا فتح شمال افريقيا والاندلس ، وكانت جل هذه الفتوحات في عهد الوليد بن عبد الملك ومن الطبيعي ان تصحب هذه الفتوحات خطب من قادة الجيوش تحمس الجنود على الجهاد والظفر باحدى الحسنين : النصر أو الشهادة ، فمن القادة الخطباء قتيبة بن مسلم الباهلي كان والياً على خراسان من قبل الحجاج بن يوسف الثقفي ، وتمكن في ايامه من فتح طخارستان وسمرقند ومن خطبه التي كان يقولها لتحميس جنده خطبته هذه التي قالها في فتح سمرقند فقد جاء فيها :
((إن الله احلكم هذا المحل ليعز دينه،ويذب بكم عن الحرمات ، ويزيد بكم المال استضافة ، والعدو وقحا ، ووعد نبيه (ص) النصر بحديث صادق وكتاب ناطق))

فقال : ((هو الذي ارسل سوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون)) ووعد المجاهدين في سبيله احسن الثواب واعظم الذخر عنده فقال :
((ذلك بانهم لايصيبهم ظمأ ولانصب ولا مخصمة في سبيل الله ولا يطئون موطأ يغيض الكفار ولاينالون من عدو نيلا الا كتب لهم به عمل صالح إن الله لايضيع اجر المحسنين)) . ثم اخبر عمن قتل في سبيله انه حي مرزوق فقال :
((ولاتحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتاً بل احياء عند ربهم يرزقون)) .
فتنجزوا موعود ربكم،ووطئوا انفسكم على اقصى اثروامضى الم واياكم والهويم .
وهي خطبة تدل على ان قتيبة افاد من القرآن كثيرا في ان يهيء جنودا للجهاد

ويحبب الى نفوسهم الشهادة وبذل النفس في سبيل الله .
وهو يعد الى القرآن ليأخذ منه الآيات التي تخدم غرضه وهي ايات الوعد بالنصر والوعد بحسن الجزاء،والصورة المشرقة التي يكون عليها الشهداء عندالله تعالى.
والخطبة بعد هذا جاءت باسلوب فصيح سلس، العبارات فيه سهلة ليس فيها تكلف او تنميق وربما يرجع هذا الى طبيعة الظرف الذي يمر به القائد وجنوده،فظرف الحرب احياناً يبعد القائد عن العناية الفنية او تكلف العبارات وتنميقها ،فهو يكتفي في التأشير وأداء الغرض بما يجول في خاطره وتسعفه به قريحته،كما ان الجنود عادة لاينظرون الى قائدهم من خلال قوله بل من خلال فعله،وقتيبة بن مسلم وغيره من قادة المسلمين كان فعلهم يسبق قولهم .

****

د. **خطب الوفود** :

شهد العصر الاموي حركة وفود القبائل العربية الى الخلفاء والولاة الامويين لغايات شتى ، وقد أدت الخطابة دورها الكبير في مهمات الوفود افراداً او جماعات ينوب عنهم فرد ليخطب عند الخليفة او الوالي مبديا وجهة نظر جماعته التي اوفدته . وابتدعت عادة في هذا العصر بعد وفاة معاوية وذلك ان تقدم الوفود على الخليفة فتعزي بموت الخليفة السابق وتهنئ الخليفة الجديد بخلافته وقد قيل ان الوفود اجتمعت على باب يزيد بعد وفاة معاوية ولم يقدروا ان يجمعوا بين التهنئة والتعزية حتى اتى عبد الله بن همام السلولي فدخل عليه فقال : ((**يا أمير المؤمنين ، أجركَ الله على الرزية ، وبارك لك في العطية ، واعانك على الرعية فقد رزئت عظيما ، واعطيت جسيما**)) وانشده ابياتاً من الشعر . وكان بعض الخلفاء يطلب من بعض جلسائه ان يقوم خطيب لبيان موقف او اعلان امر يحتاج الى توضيح واعلان اويطلب من قوم او قبيلة ان يقوم خطيبها ليعلن عن موقف جماعته.ومن هنا فقد اختلفت المعاني والافكار التي ذكرها خطباء الوفود بحسب الغرض الذي وفدوا من اجله،فكان منها خطب داعية للدين الاسلامي واخرى للتهنئة او التعزية،واخرى لبيان موقف سياسي او لمطالبة بالعطاء وبصورة عامة تمتاز خطب الوفود بالسهولة والوضوح والبعد عن التكلف .

ثانياً- **الوصايا** :

رأينا في عصر صدر الاسلام ان الوصايا قد دارت في غلبتها حول جانبين الاول وصايا الخلفاء لمن يلي الامر من بعدهم ، والاخر وصاياهم لقوادهم وعمالهم حين يولونهم حرباً أو عملاً ، وفي سائر الامر كما كان عليه في سابقه فكان خلفاء بني امية يوصون من يلي بعدهم . ولان فيهم حكمهم كان يقوم على الوراثة فان الموصى له كان في الغالب ابناً أو اخاً . واذا كانت وصايا الخلفاء الراشدين تجنح الى الوعظ والارشاد فان وصايا بني امية كانت تجنح الى تبيان ماينبغي

ان يسير عليه الموصى في سياسته ، فهي في جملتها تبصير بالسير في الحكم . ومن امثلة وصايا الامويين نذكر وصية عبد الملك بن مروان حين حضرته الوفاة ، فقد ذكر ابن قتيبة انه جمع بنيه وكان قد عهد بالامر من بعده لابنيه الوليد ثم سليمان فقال لهم :

((اتقوا الله،واصلحوا ذات بينكم،وليجل صغيركم كبيركم وكبيركم صغيركم)) . وأهم مانلاحظه في هذه الوصية لعبد الملك بن مروان لابنه الوليد ثم سليمان :

أ. ان عبد الملك في وصيته هذه يضع لابنه الوليد سياسة خاصة تبدأ بالحث على تقوى الله واصلاح ذات البين وهذا جانب ديني رأيناه طاغياً في وصايا الخلفاء الراشدين وتتضح السياسة التي كانوا يسيرون بها فيما بينهم فقد كان يخشى عليهم من التفرقة والاختلاف .

ب. امتازت الوصية بالسهولة والوضوح ، وقد عمد عبد الملك الى التصوير المباشر في قوله : ((مجنكم الذي تستجنون ، وسيفكم الذي به تضربون)) . كما استخدم السجع الازدواجي مثل قوله : ((اتخذوا صاحباً لاتجفوه ، ووزيراً لاتقصوه)) . ولا تخلو الوصية من بعض مظاهر الاطناب القائم على الازدواج مثل : ((استعينوا به على كل امر مهم ، وشاوروه في كل حادث)) .

****

ثالثاً- <u>الرسائل الفنية</u> :

شهدت الرسائل الفنية تطورا واضحاً في العصر الاموي ويتباين تطورها من مرحلة الى اخرى فهي مثل الخطب والوصايا في التطور والرقي فكلما اقتربنا من عهد الخلفاء الراشدين حظ الرسائل من الاسلوب حظها في عصر صدر الاسلام وكلما ابتعدنا عن هذا العصر وتوغلنا في عهد بني امية كان حظها في الاسلوب من التطور والرقي اوفر وحالها بعهد بني العباس اشبه . وجاءت الرسائل الفنية في العصر الاموي على انواع :

١. <u>رسائل ديوانية (رسمية)</u> :

وهي التي تصدر عن ديوان الرسائل من مكاتبات رسمية مختلفة تكتب وتحرر على لسان الخليفة او من ينوب عنه وهي على ثلاثة انواع :

أ.رسائل ديوانية سياسية : تعالج موضوعات مختلفة مثل طلب البيعة والتهئنة بالخلافة والحث على الطاعة ونبذ الخلاف والثناء والذم .

ب.رسائل ديوانية حربية : تنشأ لاغراض الحث على الحرب والقتال والاستئذان للحرب والجهاد وطلب الامداد العسكرية وتوجيه القادة وامراء الاجناد وارشادهم والاخبار بالفتح والتهنئة والنصر .

جـ. رسائل ديوانية ادارية : تعالج اموراً مختلفة كالتولية والعزل وشرح السياسة العامة بادارة الامصار وتوجيه الولاة والعمال ووعظهم وحثهم على العدل واصدار الاوامر والنواهي الادارية المختلفة . ومن امثلتها رسالة هشام بن عبد الملك الى عامله يوسف بن عمر بتوليته على العراق :((سر الى العراق فقد وليتك اياه واياك ان يعلم بذلك احد وخذ ابن النصرانيات وعماله فاشفني منهم)) .

٢. **رسائل شخصية (غير رسمية)** :

وهي لون اخر من المكاتبات التي شاعت في العصر الاموي وهذا الضرب من الرسائل لم يصدر عن الديوان الرسمي وانما كانت تصدر غالباً من اشخاص ذوي مكانة سياسية او دينية سامية في المجتمع الاسلامي فكانوا يتبادلون بينهم تلك الرسائل الخاصة التي اتسمت بالابداع والفن في اغراض مختلفة اوحت بها تلك الظروف والملابسات المختلفة التي كانت حافزاً لتحبيرها وشيوعها . وهي على ثلاثة الوان :

أ. رسائل شخصية سياسية : تعالج ظروف واحداثاً عامة وكانت تصدر من اطراف سياسية مناوئة للسلطة الاموية الحاكمة ومن تلك الرسائل على سبيل المثال رسالة عبد الله بن الزبير الى المختار الثقفي :

((إن كنت على طاعتي فبايع لي الناس قبلك وعجل انفاذ الجيش ومرهم ليسيروا الى من بوادي القرى من جند ابن مروان فليقاتلوهم والسلام)) .